مقدمات الكتب

المقدمة التي لا يكتبها المؤلف ليست ضرورية، وكاتب المقدمة الآخر من اللائق أن يكتب استعراضاً أو تقريضاً للكتاب بعد نشره، فإن وردت في الكتاب لا تجد فيها غير الاطراء والترويج لسوق الكتاب، هذا إذا كان كاتب المقدمة له صلة بالموضوع، فكيف الحال بمقدمة يكتبها شاعر أو رسام لبحث أكاديمي، ربما لكتاب في الحرب أو الاقتصاد أو التاريخ، فقد حصل أن كتب الشاعر اليمني عبد العزيز المقالح مقدمات لضباط كتبوا انتصاراتهم في حرب طاحنة سفكت دماء عشرات الآلاف. وما لنا بمقدمة يتزلف فيها شاعر أو كاتب لضابط مخابرات أو قائد جيش.

كذلك ما لنا بمقدمة يسجل فيها المؤلف محتويات كتابه، لأن جدول المحتويات يغني عنها، أو أن يتحدث فيها عن دور زوجته ووالديه في تهيئة الظروف الملائمة للكتابة، أو يتحدث فيها عن منجزه والصعوبات غير العلمية، التي واجهته في البحث. مثل هذه المقدمات تسد شهية القارئ فيسد هو بدوره دفتي الكتاب ولن يقترب منه.

مقدمة الكتاب، حسب عباس حسن صاحب «النحو الواضح» هي دستور تأليفه أو بيانه الهام. فمن مستلزمات البحوث والدراسات أن يفتتح الكتاب بشرح دواعي التأليف وما كتب سابقاً في الموضوع ذاته، وماهي المصادر وكيف كانت طريقة العمل، ولا يكفي أن يكتب المؤلف العبارة السائرة في أغلب المقدمات «قلة كتبوا في الموضوع» أو «المصادر لا تعين على الغور أكثر من هذا» أو يطلب المؤلف، بتصنع التواضع، المغفرة من التقصير رغم سهر الليالي.

ظهرت للمقدمة عدة أسماء، حاول المؤلفون استعمالها لقطع الرتابة في التغيير، فيعنون المقدمة بعنوان أكثر حساسية في القارئ، فتسمى مثلاً: استهلالاً، ولربما أراد الكاتب أو المؤلف في سريرته المباهات بكتابه، فهو مثل هلال العيد بعين الصائم عن القراءة، وآخر سمى مقدمة كتابه بعبارة «ما قبل الكتابة»، ولعل قارئاً يقول: إذا كان هذا القبل فماذا سيكون البعد! وآخر سماها "فاتحة" وهنا يحاول أن يجعل المؤلف كتابه حصين حصانة القرآن الكريم، فالفاتحة ليست هي السورة الأولى في جدول النزول الزمني، لكنها كانت ملائمة لفتح الكتاب، وبهذا الاسم يومىء المؤلف إلى فصاحة كتابه ومتانة تأليفه.

وآخر أطلق على مقدمة كتابه : «بدء الكلام» أو «أول الكلام» وخطأ هذه التسمية أن المقدمة وإن كانت في أول الكتاب لكنها آخر الكلام، فالذي يكتب مقدمته قبل التأليف مثل الحوذي الذي يقدم العربة على الحصان، وبالتالي لا مقدمة ولا كتاب! وما أكثر السرقات اليوم.

وآخرون زادوا تفنناً فجعلوا عبارة "ليست مقدمة" مقدمة للكتاب، مع أن المضمون لا يحتاج إلى ليس واخواتها، لكنه نوع من اللعب على القارئ.

يبدو أن أكثر المؤلفين في حيرة فيما يكتبونه في أول صفحات كتبهم، فتقلبوا بين عدة تسميات، ولا يخلو بعضهم من جعل المقدمة زيادة في الصفحات.

لكن هل فكر المؤلفون وهم يحبرون مقدمات كتبهم، بعد أو قبل انجاز الكتاب، في القارئ ومصير مقدماتهم وهي بين يديه، وهل قرأ المؤلف مقدمة لكتاب غير كتابه، بداية من المناهج المدرسية إلى الروايات ودواوين الشعر ثم البحوث والدراسات؟

عموماً إذا لم تحل المقدمة لغزاً في الكتاب، وتعكس هدفه وتُعرِّف بمصادره وأهميته فلا خير فيها، إن وافقنا القائل: المقدمة دستور للتأليف وبيانه الهام.

جميل الناهي

اختاره الملك حسين لتدريس أولاده.. الباحث العراقي فوزي عبد الرزاق لـ «المؤتمر»

صداقات بغداد وكركوك وكلية الإمام أبي حنيفة حيّة في ثقافتي

■ لندن ـ رشيد الخيُّون: ترك الباحث فوزي عبد الرزاق العراق العام ١٩٦٩، بعد سنوات من التعليم في مدينة قلعة دزة، غادرها بعد صداقات عميقة اقامها بمدينته كركوك ثم ببغداد. التقى صديقه الشاعر عبد الوهاب البياتي بعمان، قال له الاخير: فوزي ربما هذا آخر لقاء بيننا، فسأموت قريباً. كان البياتي سبباً في ذهاب فوزي الى الجزائر يوم كان مستشاراً لعبد الستار الجواري، وزير التربية آنذاك. ولما عاد بعد سنوات اشار البياتي الى اسفل مكتبه، وقال له هامساً، اسكت هناك لاقطة تحت مكتبي!

عاد فوزي ثانية الى الغربة فشق طريقه في امريكا بمعونة زوجته الامريكية، ليكمل الدكتوراه في جامعة بوسطن ويكون مديراً للمكتبة العربية بجامعة هارفارد لمدة ٢٥ عاماً، ورشحته الجامعة لتدريس اولاد الملك حسين، اللغة العربية والدين، بعد لقائه مع الملك حسين والملكة نور. اهتم فوزي بشؤون المغرب العربي، فأصدر «المطبوعات الحجرية في المغرب» و«مملكة الكتاب»، وله ايضاً «كتابات عربية تاريخية (كمبرج ١٩٧٣ـ ١٩٧٦) و«مجموعة الكتب والدوريات في جامعة هارفرد» (بوسطن ١٩٨٣).

يدير الان مكتبة عربية بأمريكا لتزويد جامعات العالم بالكتاب العربي، ومنها جامعات لندن ومكتباتها. اما اهتمامه البحثي الحالي فينصب على دور الافارقة من السود في الثقافة العربية والاسلامية من سحيم الشاعر والجاحظ والمئات من امثالهما.

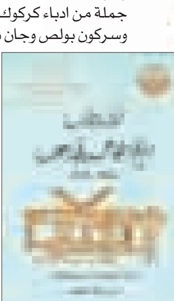

فوزي عبد الرزاق

لازالت ظلال فقه الامام ابي حنيفة النعمان وارفة على ثقافته فمن هناك تأصلت المفردة العربية في كيان باحثنا التركماني، وبأصالة هذه اللغة كتب مقالته الاولى التي فازت بمصر الستينات بجائزة، وقرأها البياتي في مقهى الفيشاوي واعجب بها، لكنه لم يبد اعجاباً بقصائد فوزي فهو لم يخلق شاعراً.

ولم يمنعه عدم نشر بحثه الاول حول المؤرخ ابن خلدون في مجلة «المنار» من الاستمرار في المحاولة فأخذ ينشر في جريدة «النور» البغدادية تحت اسم راصد عراقي. ونشر في مجلة «الآداب» البيروتية متهماً الناقد المصري غالي شكري بالسرقة. وفي الجزائر نشر مقالات ادبية نقدية في جريدة «الشعب» .. واخيراً نترك باحثنا يتحدث عن تجربته في ارض الاغتراب غير ناس صداقاته القديمة وما تعلمه في كلية الامام ابي حنيفة النعمان، عبر هذا الحوار:

● كركوك هي الوطن القديم واللبنة الاولى لذكريات الطفولة والطريق الطويل فماذا تقول عنها؟

ـ اصل العائلة من قرية «ترخلان» أو تركلان كما يسميها اهلها من التركمان الساكنين قريباً من مدينة كركوك.

كان جدي يعمل في نقل البضائع التجارية بواسطة القوافل الصغيرة والكبيرة فيما بين كركوك ـ والموصل وديار بكر عندما كان العراق جزءاً من الامبراطورية العثمانية، وكان لجدي اكثر من زوجة في كركوك والموصل وكان لي اعمام واخوال في المدينتين. كنت أدرس بكركوك واعيش فيها وامضي الصيف كله ببغداد على ضفاف نهر دجلة المنسي في الكتب المقدسة.

وحسبما اتذكر كانت حياتنا سعيدة الى ان قامت ثورة ١٤ تموز. كنت اعتقد قبل هذه الثورة بان الخط الممتد من كركوك الى التون كوبري (الجسر الذهبي) أو اربيل ونينوى كله للتركمان ومن التركمان، لكني صدمت بعد الثورة بوجود نقاط تفتيش بين المدينتين كركوك والموصل، ففي الاولى كان الجنود يسألوني عن هويتي فأقول لهم تركماني، فيأتي الرد بأني مصلاوي قيقو (اي من اهل الموصل الذين ينطقون القاف قافاً) وعندما اكون في الموصل يقال انني «كفدي» أو كردي دون ان اكون هذا او ذاك. لقد دفعتني هذه الظروف والاحوال المتقلبة الى الانكماش على نفسي واللجوء الى الدين بحثاً عن الراحة النفسية المهددة تحت طغيان القوميات السياسية. وفي بيتي في محلة صاري كهية القريب من سوق القورية كنت اتردد على بيت جارنا الملا احمد، وكنت اجده يطالع الكتب الصفراء وقصص الانبياء واخبار الجنة والنار والجن الذين يعيشون حولنا دون ان نراهم، لكن مهربي الكبير كان في بيتي حيث كنت امضي الوقت في الاستماع الى الوالدة وهي تحكي لنا قصصاً من كتاب الف ليلة وليلة وحيل شهرزاد وسذاجة الحسن البصري الذي يصدق الغرباء ويقع في مصائدهم. كذلك كنت استمع الى والدتي وهي تعلمني مبادئ اللغة الانكليزية على سطح الدار وتحت اشعة الشمس الدافئة من بعد صلاة العصر وحتى الغروب.

● من تتذكر من الاصدقاء، ومن تأثرت بهم في حياتك الثقافية؟

ـ عندما انظر الى الوراء فأتذكر الاشخاص الذين اخذوا بيدي نحو النور اجد خالي واحداً منهم. فقد امضيت اياماً بل اشهراً عديدة وانا اطالع معه في بيته القريب من نهر دجلة في الموصل مجلات كمجلة «الهلال» و«المصور» وروايات لجرجي زيدان وغيره.

كان خالي يميل الى اليسار وفكرة الانسانية بصورة عامة وكنت اميل نحو الدين واتجادل معه كلما تطرق الحديث الى السياسة ولاسيما مسألة القومية والاستعمار التي كانت تشغل عالمنا الخارجي وتجتره ليل نهار. لم اكن افهم من السياسة شيئاً ولكني كنت ابحث عن الذات والطريق الذي سيعيد لي هدوء الطفولة وسعادتها.

وفي خارج البيت شاءت الاقدار ان التقي بشخص منكمش على نفسه مثلي وهو فاروق مصطفى. وكان ذلك في الصف الثالث الابتدائي. كان فاروق من عائلة كردية وام تركمانية وكان جل اخوانه من المثقفين أو التجار الناجحين وفوق كل شيء كان فاروق من التلاميذ النابهين ويرفض ان يكون صديقاً لكل من يمرّ في طريقه بل كان بطيء الصداقة ويحتاج الى وقت لتعميقها.

استمرت صداقتي مع فاروق حتى المرحلة الثانوية وبعدها بسنوات عديدة. كان فاروق متأثراً باحد اخوانه وكنت اجده قارئاً جيداً لمجلات كمجلة «الاداب» البيروتية التي لم ار مثلها من قبل وكان يكتب رغم نعومة أظفاره مقالات في جرائد بغداد.

كان فاروق يميل ـ مثل خالي ـ الى اليسار وكنت مازلت اجد في الدين العزاء والهدوء وكنت اجادله احياناً وبغضب. وبعد تخرجنا من الثانوية التحق فاروق مصطفى بكلية الاداب في جامعة بغداد وذهبت انا الى كلية الشريعة. كان فاروق يدرس علوم اللغة العربية والآداب وكنت ادرس علوم الدين والشريعة والفلسفة الاسلامية اضافة الى علوم اللغة العربية وآدابها. كان فاروق يمثل نهج الحداثة في عراق الثورة وكنت امثل المدرسة القديمة بكل ما فيها من معنى.

● وماذا درست في كلية الشريعة وكيف اثرت فيك فيما بعد؟

ـ كنت ادرس بجوار قبر الامام الاعظم ابي حنيفة النعمان محاطاً بمقبرة تحيط بالكلية من كل جانب إلا الشارع المقابل لواجهة الكلية وبعد العام الاول من الدراسة وجدت نفسي متجاوباً مع علوم اللغة والادب الفلسفة وممتعاً فيما يتعلق بالدروس القانونية والشرعية، ووجدت نفسي شيئاً فشيئاً اتهرب من دروسي الشرعية لقضاء الوقت في المكتبة المركزية لجامعة بغداد حيث كنت اطالع مؤلفات عبد الرحمن بدوي وزكي نجيب محمود والحلاج والنفري والبسطامي، كذلك كنت اطالع بنهم واضح مؤلفات مترجمة لسارتر وسيمون دي بوفوار وجورج سانتيانا.

● وماذا عن صداقاتك وعلاقاتك ببغداد؟

ـ كنت والصديق فاروق نعيش في القسم الداخلي في الشماعية ومن ثم في باب المعظم وكنا نرتاد المقاهي العديدة على طول شارع الرشيد وأبي نواس وهناك تعرفت على العديد من الادباء والكتاب والصحفيين من امثال عبد الامير الحصيري، عبد الرحمن طهمازي، وفوزي كريم وعبد الرحمن الربيعي. كذلك تعرفت وعرفت من خلال الصديق فاروق على جملة من ادباء كركوك كجليل القيسي وسركون بولص وجان دمو وصلاح فائق وفاضل العزاوي.

> كنت ادرس بجوار قبر الامام الاعظم ابي حنيفة النعمان محاطاً بمقبرة تحيط بالكلية من كل جانب إلا الشارع المقابل لواجهة الكلية وبعد العام الاول من الدراسة وجدت نفسي متجاوباً مع علوم اللغة والادب الفلسفة

● وهل مارست الكتابة آنذاك؟

ـ في السنة النهائية من دراستي في كلية الشريعة اكملت تحرير مقال مطول عن «الشطح الصوفي» وبعد تردد عرضت المقال على احد الاساتذة فكان فرحه مذهلاً لي وطلب مني قراءة المقال امام جمع من الطلبة ومن المنصة التي يلقي منها محاضراته. وكان هذا الاستاذ الدكتور قاسم السامرائي الذي تتلمذ في هولندا وبدأ حياته الدراسية في كلية الشريعة عام ١٩٦٦ـ ١٩٦٧، ولم يكتف هذا الاستاذ بما صنع بل زاد وقدمني الى استاذ آخر هو الدكتور ماهر حسن فهمي الذي ارسل المقال الى مجلة «المجلة» القاهرية لنشره. وبعد سنتين عندما كنت في القاهرة جاءتني رسالة من رئيس تحرير مجلة «المجلة» الكاتب والروائي الشهير يحيى حقي يريد مقابلتي لمناقشة مقالي عن الشطح الصوفي قبل نشره.

وعندما دخلت على الاستاذ حقي في مكتبه كان مندهشاً لرؤيتي شاباً صغيراً مؤلفاً لمقال في موضوع معقد، وجلست عنده ساعة وهو يناقشني تارة ثم يدع الدكتور عياد يختبرني في مادة التصوف. وفي النهاية وقف الاستاذ حقي ومد يده لي مصافحاً هو يقول: «سيخرج المقال هذا الشهر وسنعطيك جائزة».

خرجت من مكتبة الاستاذ حقي وانا اشع كالطاووس وبدت القاهرة لي رغم ضخامتها وضجيجها اليفة وصديقة. وكنت شديد الاشتياق الى رؤية وجه صديقي فاروق مصطفى لكي ارى رد الفعل عنده لهذا التحول الكبير في حياتي الكتابية. لقد كنت اشع وقتذاك بان صداقتي مع فاروق مصطفى والحلقات الادبية التي تعرفت عليها من خلاله في بغداد وكركوك ـ تحتم عليّ ان اكون في المستوى المطلوب فمثلما كنت اريد ارضاء الوالدة في حياتي الدراسية كتلميذ كنت ارغب في ارضاء صديقي فاروق بقدرتي على الارتفاع الى الاحسن والأحسن اعترافاً بفضله العظيم عليّ وانا شاب يافع.

● عرفت ان لك صلة بالشاعر عبد الوهاب البياتي رغم الفارق الزمني بينكما؟

ـ مثل اغلب الطلاب العراقيين تعرفت على البياتي عبر الكتب المدرسية حيث كنا نقرأ اشعاره واخباره، وكان صديقي فاروق مصطفى يحب الشعر ويكتبه منثوراً، كما كان يقرأ اشعار البياتي بصوته الجهوري ونحن في القسم الداخلي في جامعة بغداد.

في صيف عام ١٩٦٧ ذهبت الى القاهرة للالتحاق بكلية اصول الدين (جامعة الازهر) لاتمام الدراسات العليا، وفي ذلك الوقت نزلت ضيفاً عند الاخ الوسط لفاروق مصطفى ـ الاستاذ فائق ـ وكان معه الناقد العراقي شجاع مسلم العاني، وبعد اسبوع من وجودي في القاهرة اخذني الدكتور العاني لزيارة البياتي وبقينا اصدقاء حتى آخر ايامه في عمان وقبل وفاته ببضعة اشهر.

كنت اتصور البياتي كإنسان بدوي مُعقّل ولكني بعد تعرفي عليه وجدته مثل البرجوازيين الفرنسيين يتغنى بالثورة وعذاب الانسان، ولكنه يعيش حياة عصرية مملوءة بكل ما يتمناه المرء من عيش رغيد ورحلات سعيدة في اقانيم الليل والنهار، وكان البياتي بحق اكرم انسان عراقي وجدته في حياتي وكانت مائدته في مقهى «لاباس» في القاهرة عامرة بزوار من كل انحاء العالم.

وكان تأثير البياتي عليَّ عظيماً من عدة اوجه، منها انه كان شديد الالحاح عليّ بترك دراستي في الازهر لعدم نفعها وكساد سوقها وانقطاع صلتها بالحاضر كما كان يقول .. ثم انه عرفني بعدد عظيم من الكتاب والادباء الذين كانوا يزورونه من امثال صلاح عبد الصبور، احمد عبد المعطي حجازي، مظفر النواب، خليل كلفت، عبد الرحمن الشرقاوي، ميخائيل رومان، نجيب محفوظ وآخرين لا تحضرني اسماؤهم الآن.

والامر الاخر الذي اعانني فيه البياتي هو اخراجي عام ١٩٦٩، من مدينة قلعة دزة القريبة من الحدود الايرانية وارسالي الى الجزائر ضمن البعثة العراقية للتعريب، وفي الجزائر التقيت بزوجتي الحالية التي شجعتني على الهجرة الى الولايات المتحدة.

وعندما عدت الى العراق زائراً عام ١٩٧٧، انقذني البياتي من السوق الجبري الى الجندية ثم انه نصحني بعدم جدوى الرجوع الى العراق مرة اخرى بجواز عراقي، وكنت حتى ذلك الوقت امتنع عن استلام الجنسية الامريكية وفاءً للوطن رغم الحاح الاهل والاصدقاء. وكان آخر مرة رأيت فيها البياتي في عمان وبعد سهرة طويلة اخذته الى بيته وبعد النزول الى السيارة مسك بيدي طويلاً وقال: لعل هذا اللقاء هو الاخير بيننا ثم دخل عتمة داره.

● كيف تمكنت من الكتابة باللغة الانكليزية، مع الحفاظ على سلامة كتابتك بالعربية؟

ـ بعد هجرتي الى مدينة زوجتي في بوسطن ـ الولايات المتحدة عام ١٩٧٢، بدأت بتقوية لغتي الانكليزية استعداداً لاكمال دراستي للماجستير ومن ثم الدكتوراه في جامعة بوسطن وكذلك البدء بالكتابة

وبالفعل قمت في سنة ١٩٧٣ باعداد كتاب سميته «كتابات عربية تاريخية» قدمت فيه اكثر من مائة كتاب تاريخي صادر في العالم العربي مع عروض وتعليقات عن مادة كل كتاب ومؤلفها فأصبح هذا الكتاب معروفاً في دوائر دراسات الشرق الاوسط في الولايات المتحدة وقد شجعتني ادارة المكتبة في جامعة هارفارد بالاستمرار في العمل ودعمت جهودي بقيامها بنشره وتوزيعه في جميع انحاء العالم وقد اعددت في هذا المجال ثلاثة كتب نشر آخرها في لندن من قبل شركة ماسيل عام ١٩٧٦.

كان كل هذا بمعونة زوجتي التي لم تتردد ابداً في اسداء النصائح القيمة لي فيما يتعلق بالاسلوب وتقديم المادة الى القارئ.

وعندما بدأت الكتابة باللغة الانكليزية كانت زوجتي تقرأ ما اكتب وتسألني ماذا تريد ان تقول؟ وما هي اطروحتك ومصادرك؟ ومن تخاطب؟ وكانت تقول لي كن واضحا فالبلاغة الصحيحة هي ايصال ما تريد ايصاله للقارى بكل بساطة ووضوح ونظام منطقي.

ومع مثل هذه الاسئلة والمطارق بدأت اميز بين الاسلوب العربي للكتابة الذي كنت اتبعه وبين اسلوب جديد لايقبل الغموض والمداورة والاقحامات المتكررة، ثم انني حملت معي هذه التعليمات التي هي جزء عادي في الكتابات الامريكية الى مدى ادق وأوسع بتعلمي للمناهج الادبية والنظريات الاجتماعية والسياسية قصد استخدامها في كتاباتي المتعلقة بالتاريخ الثقافي والحضاري لشمال افريقيا ولاسيما المغرب العربي وكان كتابي «مملكة الكتاب ترجم الى اللغة العربية ونشرته في كلية الاداب ـ جامعة محمد الخامس في الرباط عام ١٩٩٠.

● ولماذا الاهتمام بالمغرب دون غيرها؟

في العام ١٩٦٩ عندما ذهبت الى الجزائر ضمن البعثة العراقية لتعريب الجزائر، كنت كثير الكتابة في الصحف الجزائرية ولاسيما جريدة «الشعب» فلي في هذه الجريدة عشرات المقالات حول ثلاثية الرواي الجزائري محمد ديب اضافة الى عدد من القصائد النثرية والتعليقات الصحفية المتنوعة في مجال الادب والفن.

عشت في الجزائر اعواماً ثلاثة وكنت خلالها ازور المغرب فأجده مثل العراق بتكوينه البشري وحضارته العريقة والحس القوي بشخصيته، فالمغربي كالعراقي يتعلم اللغات الاجنبية من فرنسية وانكليزية دون تردد أو خوف على لغته او ثقافته، واضافة الى ذلك ان الامان والراحة النفسية التي كنت اجدهما في العراق ايام طفولتي قبل ثورة الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨ اجدهما الان في المغرب وافرح به واعود اليه كلما يبدأ الحنين الى الوطن القديم في قلبي. وهكذا وجدت نفسي ارد للمغرب واهله بعض ما قدموه لي من الحب والامان، علماً ان لي كتابات اخرى عديدة حول الادب المهجري ومصادر توثيقه.

● بماذا تشتغل الان؟

ـ مثلما تعلم كنت اميناً لمجموعة الكتب والدوريات العربية في مكتبة جامعة هارفارد ما يقرب من ربع قرن وقبل خمسة اعوام احلت نفسي على التقاعد المبكر وبدأت التفرغ للعمل التجاري (الوراقي) والثقافي، ومنذ عام ١٩٨١ املك شركة للنشر والتوزيع واقوم بزيارة الدول العربية والاوروبية من اجل جمع النوعيات المطلوبة من الكتب لتوزيعها في الولايات المتحدة وكندا والدول الاوربية كذلك مازلت اقوم بواجباتي كمحرر اداري لمجلة (العالم العربي) وفي بعض الاوقات القي محاضرات في عدد من الجامعات الامريكية او في المراكز الادبية في العالم العربي.

لدي الان مشروع طويل ومعقد يتعلق بالعرب السود والافارقة الذين عاشوا في العالم العربي وبرزوا فيه كقادة وادباء ومفكرين. ومنذ عدة اعوام اجمع المعلومات الكثيرة عن هؤلاء السود واريد تقديم هذه المعلومات في صورة كتاب تاريخي لدى اكمالي للموضوع في الاعوام المقبلة ان شاء الله.

قصيدةُ نثرٍ ولكن بقافية

الشعر متعة لغوية جمالية وإلا.. خواء

محمد حسين الأعرجي

نحنُ في عصر الانحطاط سياسيّاً، وفكريّاً، واجتماعيّاً، وأدبيّاً. فمن هذا الانحطاط المركّب أن صار لنا شيءٌ في أدبنا الحديث اسمهُ: قصيدةُ النثر، وأنا لا أكاد أهضم حتّى الآن هذا المصطلح الذي يُشبه أن يُقال لك: إنّ هذا المرءَ في حدّة بصره زرقاءُ اليمامة، ولكنّه أعمى.

وإذا كنتُ لا أهضم المصطلح نفسَه فأَحْرِ بي أنّني لا أرى ما يقع تحته شعراً على الإطلاق.

لا أقول هذا عن تعصّب، وإنّما أقوله عن تذوّق؛ فالشعر عندي في الأساس هو مُتعةٌ لغوية جمالية، لا أريد منه فلسفةً، ولا تفلسفاً فكتب الفلسفة واضحةً دقيقةً موفورةٌ لمن يحبّ أن يقرأها.

فإن لم أشعر بالمتعة التي يمنحني إيّاها طرفة بن العبد، والمتنبّي، والمعرّي في «سقط الزند» وليس في لزومياته، والجواهري، وبدوي الجبل، وأبو ريشة، وجمال الدين، والسيّاب، وسعدي، ومظفر النوّاب في طائفة من قصائدهم، وليس في جميعها.

أقول: فإن لم يمنحني هؤلاء أن أشعر بالمتعة اللغوية جمالاً وفنّاً استوى حينئذ عندي الشِّعرُ والخواء والتبستْ زقزقةُ العصافير برسم عصفور بائس في لوحة يُطلب منّا ونحن نراه أن نسمع غناءه.

وإذاً، أنا لا أرى في " قصيدة النثر " شعراً إلاّ في استثناءات أقرؤها على أنّها نثرٌ مركّز كما كان يسمّيها المرحوم الشاعر حسين مردان، قد يكون جميلاً، وقد لا يكون.

وإذاً، أنا لا أرى فيها شعراً من يوم كتبها أمين الريحاني فتابعه على ذلك منير الحُسامي سنة: ١٩٢٥ وحتّى هذا اليوم الذي أكتب فيه. بل إنّني أتذوق إنشاء طه حسين أكثر ممّا أتذوّق الكثير من نماذجها.

ورأيي هذا قابلٌ للنقاش، ولكنّ تذوقي للشعر غير قابل للتعديل؛ لأنّني من الناس الذي يسكرون ببيت شعر جميل، وينطفيء فرحهم ببيت ناشزٍ موسيقىً أو معنى، ولأنّ التذوق شيٌ شخصيٌّ جداً؛ فليس لأحد أن يُرغمك ـ مهما علت أستاذيّته في الموسيقى ـ أن تُعرض عن سماع فيروز، أو عن سماع بيتهوفن، أو جايكوفسكي، أو موسارت، بل حتّى عن داخل حسن، وسعدي الحلّي إلى ضجيج الجاز، ليس لأحد ذلك، وإلاّ كان معتوهاً بامتياز. فإن نعتك بالتخلّف فما أسهل أن تنعته بالتفجّ.

هذا والشعر البارد هو والحُمّى عندي سواء.

وقرأتُ في جريدة «المؤتمر» في عدد لا أتذكر رقمه أن أحد الشعراء العراقيّين ينوي إصدار ديوان من النثر، ولكنّه سيكون نثراً مقفّى.

وإذ قرأتُ الخبر صاحت بي ذاكرتي: أن الآن اكتمل الانحطاط.

اكتمل الانحطاط في شعرنا؛ عراقيّاً، وعربيّاً؛ لأنّ هذا الناثر وهو يُقفّي ما يسميه قصائد لن يعدو أن يكون من سجّاعي الكُهان في الجاهلية، وإلاّ فبأي شيء سيختلف قوله في الشكل ـ على الأقلّ ـ عن قول قسّ بن ساعدة الإيادي:

ليلٌ داجٍ
وسماءٌ ذاتُ أبراج
وأرضٌ ذاتُ فجاج
وبحارٌ ذاتُ أمواج
ما لي أرى الناسَ يذهبون فلا يرجعون
أرَضوا بالمُقام فأقاموا
أم تُركوا هناك فناموا؟

إنّ في قول قسٍّ لغةً ناصعةً لا يمتلكها ناثرنا الحديث، وإنّ فيها تأمّلاً وجوديّاً عميقاً قياساً إلى عصره، ولكن هل ما قال قسٌّ شعراً؟

كلاّ، وألف كلاّ.

ويريد أن يُقنعنا المتشاعرون العرب ـ باسم الحداثة ـ أنّ ما يكتبونه شعراً، وشعراً رائعاً؛ فيكون من إنجازاتهم المُعجزة أن يكتبوا نثراً بقواف.

ألف مبروك، وهَلهولة؛ فقد رجعنا إلى القافية، وهذا إنجازٌ عظيم.

وأقول: إنّ القافية رغم جمالها ليست من الشعر، ومن آيات ذلك أن سمع العرب قول القائل:

ألا هل ترى أن لم تكن أمُّ مالك
بملك يدي أنَّ الكفاء قليلُ
رأى من رفيقيه جفاءً، وغلظةً
إذا قام يبتاعُ القَلوصَ ذميمُ
فقال: أقلاّ، واتركا الرّحلَ، إنّني
بمهلكة، والعاقباتُ تدورُ
فبيناهُ يَشري رحلَه قال قائلٌ:
لمن جملٌ رِخوُ الملاط نجيبُ؟

سمع العربُ تلك الأبيات فاعترفوا لقائلها بأنّه شاعرٌ، ورَووا له قولَه.

أمّا الذي لم يعترفوا به على أنّه من الشعر فهو هذا الهراء الذي نقرؤه هذه الأيام من قبيل قول أحدهم:

«الأفياء الصغيرة لا تتّحد
ولا يبعثرها الغصنُ الغِرّ
أطيافها تتأنّى قليلاً مع النحلة الممغنطة
تواثبي
عند صفحة المساء الخفّاق
التي ما إن تتوقّع نظرةً حتّى
تنطفيء في لهاث قصيرٍ يتحرّر في النسيان...»

وأعترف أنّني لم أفهم حتّى الآن جوهر الشعر في مثل هذا القول، حتّى ولو قُفّي بألف قافية. وأعترف أنّني حين أقرؤه أتذكر قول ابن الأعرابي «إن كان هذا شعراً فما قالته العربُ باطل» وأتوسّع فيه فأقول: إن كان هذا شعراً فما قاله شعراء العرب، وشعراء العالَم باطل».

وإذاً، ما معنى قصيدة نثر مُقفّاة؟

إنّ جوهر الشعر لكي يكون شعراً إنّما هو في موسيقاه، وليس في قافيته.

نعم، احتاج الشعراء إلى القافية في قصائدهم الغنائية؛ لأنّ من شأن الشعر الغنائي أن يكون خطرات متناثرة بها حاجة إلى رابط يقول لنا إنّ في القصيدة ما يُشبه الوحدة في بنائها. هذا إلى ما تُضفيه من جرس على القصيدة بإئتلافها مع الموسيقى، أمّا فيما عدا ذلك من شعر ملحميّ، أو مسرحي، أو ما إليهما فلا ضرورة لها.

هذا وقد بقي شعرنا الحديث غنائيّاً، لا يختلف عن شعر الأقدمين إلاّ بركاكة اللغة، وتنافر أجزاء الصورة الشعرية.

فقد كان القدماء أحجى منّا، وأصفى ذوقاً حين اشترطوا للصورة الشعرية قرب المستعار منه من المستعار إليه.

أما هذه الفوضى المرعبة في فنّ القول، التي نشهدها فهي تسويقُ العجز الفنّي، وعطلُ الموهبة على أنّه شعرٌ.

نعم، سأعترف لهذا الناثر المُقفّي الذي يزعم هو وكثيرٌ من زملائه «النُّثراء» أنّهم شعراء بأنّهم كذلك حين تكون نصوصهم الموعودة بمثل جمال نصوص الإمام علي بن أبي طالب في «نهج البلاغة». أو حتّى بمثل جمال نثر الجاحظ، أو التوحيدي، بل حتّى بمستوى نثر الصاحب بن عبّاد.

ولماذا لا أُطالبهم بذلك وهم مُخلّون من كلّ قيدٍ فنّي؟ فإن عجزوا أن يفوقوا تلك النصوص جمالاً فلا داعي لتجريب ما هو مُجرَّب، فمن جرّب المُجرَّب حلّت ـ كما يقول المثل العربي ـ عليه الندامة، ولا داعي أيضاً أن يزعموا أنّهم شعراء؛ فبين الشعر والادّعاء بونٌ بعيد.

أقول هذا دفاعاً عن نفسي لا دفاعاً عن شيء آخر؛ فقد ابتلاني اللهُ بأُذن موسيقيّة يجرحها النشازُ، فتضطرب له ـ ويشهد الله على ما أقول ـ أعضاء جسمي كلّها إلى درجة القيء؛ لذلك صرتُ أتجنّب قراءة أيّ نموذج من «قصيدة النثر» إذا رأيتُ سطورها الأولى لا تمّ عن شاعريّة، فما بالك بي إذا قرأتُ قصيدة النثر ـ كما يُسمونها ـ وهي مُقفّاةٌ بدون وزن؟

إنّ ذلك لهو الشعر الخُنثي.

هذا والموسيقى أصلٌ من أصول الشعر في العربية، فليكفّ النُّثراء عمّا يفعلون، فإنّ في طبع أعمالهم النثرية المزعوم أنّها شعرٌ خسارة اقتصادية، وتلويثاً للبيئة الشعرية، وإنّهم والله لن يزيدوا على أن يَلحنوا، ولكن بإعراب. ورحم اللهُ امرءاً عرف قدر نفسه.

وعتابٌ على كلّ المجلات، والجرائد العربية دون استثناء أن تنشر مثل هذا الغثيان على أنّه شعر!!!

وأظنّ أنّه قد آن الأوان لنقول لهؤلاء الأدعياء: إنّكم ليسوا بشعراء، ونعتذر عن نشر ما أرسلتموه.

أظنُّ أنّه قد آن الأوان؛ وإلاّ فسيبقى الشتاء القارس يزعم أنّه ربيع فَينان، زاهر.

أبو الطيب المتنبي

متزهدٌ والنور من أوحاله

المتشابه بين الميمر والأبوذية والعتاب

كريم الأسدي

اذا جنّ الدجى والخل مرا
واضحى سائغاً ما كان مرا
كأن الفرقدين ـ سواء ـ مرا
وامطرت النجومُ على التراب

الميمر فن شعري شعبي عراقي منتشر في منطقة الجزيرة والبادية والجنوب والفرات الاوسط، كما هو معروف في بلدان الهلال الخصيب، ويتكون من اربعة مقاطع، الثلاثة الاولى منها يجب ان تنتهي بنفس الكلمة التي تؤدي كل مرة معنى مختلفاً، اما الفقرة الاخيرة فتنتهي بكلمة مختلفة على ان تكون قافيتها حرف الراء الساكن مثلما في كلمة «ميمر»، ومن هنا جاء اسم هذا الفن وهو يشبه الى حد بعيد فن «الابوذية» الشعبي المنتشر جداً في الجنوب والفرات الاوسط .

أما «العتاب» فهو فن شعبي شعري آخر منتشر في نفس مناطق الميمر ويشبهه تماماً باستثناء القافية التي يجب ان تنتهي بالالف والباء الساكن مثلما في كلمة «عتاب» حيث اتت التسمية. نحاول هنا نقل هذه الايقاعات المحلية الى العربية الفصيحة.

كم دارةٍ مــرّت به مِن داره
والروح لا تسري به مِن داره
مَن دار لايدري الذي مَن داره
مَن ظلّ يدري ان فجراً يزهر

○○○○○

يوحى ولايدري الذي او حالَه
متزهدٌ والنور من اوحالهِ
لا تسألوا عن لونهِ أو حالهِ
ياقوتةٌ شعت بصحنِ المرمر